

# الأمراض العصبية

ومرضى النفوس

للككتور ابراهيم ناجي (١)

إن موضوع النفسيات الريضة في المجتمع يمس صميم أخلاقنا وحياتنا الاجتماعية من أول العقولة إلى آخر مرحلة في العمر. كنت أحاضر ذات ليلة في موضوع قريب من هذا في معهد التربية وكان الحديث خاصاً بفرويد. فمأثني أحد الأبناء عن سر اهتامي بفرويد، قائلاً إن مذهبه يحل النفوس الريضة دون النفوس السليمة العصرية، فهو مذمب قليل النفع من هذه الجهة. فسألته «أين هو الرجل السوي يا سيدي؟» إن لكل منا شذوذه، ولكل منا أمراضه النفسية التي يحملها سارياً، ولكل منا حزمة البالغ حياً، وصمتاً الطويل أحياناً واقفاله إلى حدود الجنون أحياناً أخرى ...»

حين أتكلم عن الأمراض النفسية الشائعة، فكلامي يشمل أحوالاً طامعة، أحوالاً تمس كل عقل وكل روح، غير أن هاته الأحوال قد تكون قليلة أو متفرقة في شخص ما فلا تحدث أنراً، ولا تستوقف نظراً، وقد تجتمع في شخص آخر، على شكل خاص فتحدث مرضاً خاصاً. وقد يتغير مظهر تلك الاعراض، باختلاف الأحوال والبيئة والوراثة، فيتخذ المرض اسماً آخر. فالترق ليس يبدأ بين السليم والمرضى، وبين المرضى بالعصي البسيط والعصي المعقد، وبين العصبي المعقد، ... ومستشفى المجاذيب!

والأمراض العصبية الشائعة هي على الترتيب: — (١) مركب النقص. (٢) مركب القلق.

(٣) النوراستانيا. (٤) المستربيا. (٥) الجنون. وقد رتبها بحسب كثرة شيوها

مركب النقص ليس في أوسع فهم هذا المركب الشائع بغير الرجوع إلى الحديث عن العقل الباطن. والمقام لا يتسع للإطالة في موضوع العقل الباطن البلية

بني فرويد نظرت على الصراع القائم في العقل الباطن - وفرويد لم يخترع العقل الباطن وإنما حدد معالمه ووظائفه، وفصل القوى المتناضلة في داخله، وتأثيرها في حياة الفرد والمجتمع وتبع تلك القوى المتضاربة من عهد الطفولة إلى أن تستمر نضجاً في الرأفة والشباب

وخلاصة هذا النضال ، إن الإنسان يولد وفيه دوافع غريزية فشيمة تائرة ملححة . ويقسم فرويد هذه الدوافع قسمين كبيرين ، الدافع الأول للمحافظة على الذات ، والثاني للمحافظة على النوع ، أي إن ، الأول خاص بالحياة ، والثاني بالحلب . وفي رأيه إن الحلب أقوى الدافعين وهو هو البركان الذي يكن في أعماق النفس ، والزوال الذي رجسها رجساً .

وهو هو الذي يفرغ الحياة في قلبها الخاص ، أو — على حد تعبيره — يهيء لها « أسلوبيها »<sup>(١)</sup> . وقد اختلف معه تلاميذه ولا سيما ادلر ، فقال إن الدافع الثاني ( الجنس والحلب ) مستمد من غريزة البقاء فلامضى لفضله عنها ، وقال إن الإنسان يولد بإرادتين إرادة القوة وإرادة الاجتماع أما إرادة القوة فتستمد توتراً من الغريزة الكبرى وهي المحافظة على الذات ، ومنها إنبات الذات وتوكيد وجودها ، وهذه هي الغريزة المسيطرة الواضحة في الصغير والكبير .

في الصعلوك والأمير . وهي عقدة العقد في فهم أكثر المسائل النفسية . ولكن هذه الغريزة تختلف كجميع التفرات الأخرى في شخص ما عنها في آخر ، بحسب التركيب الجفاني ، وبحسب الاستعداد الوراثي ، ويختلف أثرها فيها بعد بحسب الوسط والاحوال . خذوا مثلاً الطفل ، أنه يحاول طول يومه أن « يؤكد » ذاته ، ويحاول أن يريك ما صنع وما سيصنع . ولما كانت كل

ميكولوجية الطفل واضحة في لعبه فنظرة واحدة إلى الطفل وهو يلعب تبين لنا أنه بذلك « اللعب » يحدث في إثبات شخصيته . وخذوا مثلاً الشحات الحفير ، أنه يستجدي ولكنه لا يسح لك أن تتجاهله أو تهينه . والموظف الصغير الذي لا قيمة له إذا أرسل لك أيها الموظف الكبير بطاقةً على سبيل المائدة ، فأهملته ولم ترد عليه أمرها في نفسه وعدّها اهانة موجّهة إلى تلك « الذات » التي تحاول إثبات وجودها في جميع الأفراد والاحوال .

كان لي صديق من الأطباء يحاول أن يكسر « أنف » رئيس المرضين ، فكانت الثورة لانهياً في المستشفى ، ولم يكن صديقي الطبيب يدري من مبعثها أو ما حببها . قلت له : أنت تريد أن تكسر « أنف » رئيس المرضين ، والله جعل له ذاتاً تتور على ذلك الضغط ، فأنت تحاول سحقها من ناحية وهي تحاول إثبات وجودها على المرضى وسائر المرضين .....<sup>(٢)</sup> وهذا سرّ الثورة ... فلما كفى عما كان في ميوله هنا كل شيء .....

إن محاولة إثبات الذات ، تتطلب الشعور بما ينقصها لكي تستكمله ، وقد يكون النقص واضحاً ، أو يكون الشعور به حاداً ، أو يكون التوصل لثغرة النقص ضيقاً أو شاذاً ، فهذا الشعور بشيء ينقصنا ومحاولتنا سد هذا « العجز » ، هو ما يسمى « مركب النقص » فيتضح إن مركب النقص قائمٌ فينا جميعاً إذ ليس منا من ليس به نقص ، وليس منا من

لا يسمى ال سد ما يشعر به من فراغ ، ولكنه عند بعض الناس محاولة مقنونة ، وسبيل الى الكمال مترن محترم ، وعند بعض الناس مرض بكل ما في هذه الكلمة من معنى . وعند آخرين مرض عصبى معتقد قد يؤدي الى أخطر العواقب . لم هذا الاختلاف ولم يكون النعال لسد النقص متزكاً مقبولاً في هذا وأحق مجنوناً في ذلك ؟ مع ان النقص قد يكون واحداً في كليهما ؟ نحن أبناء الوراثة ونحن أبناء الوسط . أما الوراثة فلا نزاع في شأنها الخطير . ولكن لا يجب ان يفهم من ذلك اننا نرث العصبى او نرث الجنون . وانما نحن نرث اتجاهات خاصة وخصائص ذهنية متناثرة . وهذه الاتجاهات والخصائص هي كالنواصر الكيميائية سواء بسواء ، وكما ان هاته العناصر تتفاعلها ، وتلاقيها ، وما يحيط بها من التؤثرات ، قد تحدث مركباً متفجراً ، أو مركباً لا تقع فيه ، أو مركباً نال القيمة نافعاً بعيد الأثر . كذلك الاتجاهات والخصائص الموروثة وقد قسم كرنيلنج الشخصيات على هذا الاساس الى شخصية هدامة ، وشخصية خاملة ، وشخصية خلافة . وفي الوسع اذا حللنا مقولة كل بالغ ، واستعرضنا ما كان وانحسباً من اتجاهاته الذهنية ، والتؤثرات الخارجية التي أحاطت بشخصيته وكيفية استجابته لثاته التؤثرات ، ان نعرف بالتقريب من أي طرفه سيكون . على انه قد تظل هاته الاتجاهات كما هي لا تتغير ، وتظل صاحبها على شدوذه ، وعلى غرابة اطواره ، فإذا أصابه ما يضعف أعصابه ، او يصدها صدمة قوية ، فان هذا الشذوذ ينقلب الى صنف من الأمراض العصبية محدود جلي ، لمن أحاط بما سبق ذلك المرض من الاتجاهات الذهنية للمريض

أضرب مثلاً لذلك : شخص نعرفه ، وجدناه جفاً قد ابتعد عن الناس ، وصار لا يهتم بأي شيء عاطفي ، من حزن او فرح ، وغدا يحذر الناس ويعتقد ان كل ما يقولونه او يعملونه موجه الى شخصه بالذات . هذا مرض نسميه الميزوفرنيا . ولكنه قبل ان يكون مرتكباً ، يرضح ان صاحبه كان ميالاً الى العزلة ، منسباً على ذاته ، محبباً لها ، شديد الخلد من الناس فلما اعترضه من التؤثرات ما جعلته يمثل حقيقة أخذت اتجاهاته تتلاقى في النقطة المنتظرة يتضح مما ذكرت شيثان : اولاً — تأثير الوراثة ، وانها ليست الا اتجاهات وخصائص ، وثانياً — اننا بالتربية والبيئة يمكننا ان نؤثر في هاته الاتجاهات وما أن تقف ثابتة لا تتغير ، وإنما أن تنتج شيئاً نافعاً . وقال كرنيلنج ان خصائص الميكرى هي خصائص مرضية محضة ولكنها بفعل أحوال خاصة ، ومؤثرات بعينها ، تتلاقى فتكون ماسة عقبرية متألقة ...

قد يكون مركب النقص غير ملموس فيعد طبيعياً ، وقد يكون عنيفاً ، فيؤدي الى أوحش المراتب أو الى أبعدها صدى وأعجبها دورياً ، وما مثل نابليون وأصحابه بعيد وقد يكون الشذوذ متوسط العنف ، فيؤدي الى حالات فردية في المجتمع تلاقىها كل

يوم ومن فرط ما نراها لملها غريبة وشاذة ولا نملها مرضاً مثال ذلك : التقصير انقاعة  
التي يبتدع الحيل ليبدو طويلاً ، والأصلح الذي ينسي شعره من أسفل أو من الجانب ليغطي  
به صلته ، والجامل الذي لا يبتك يدس كفة اجنبية بين حين وآخر في ما يقول ، والمثناة  
السيماية التي تنهات على فلم ماقط لتظهر ولو مرة واحدة على الشاة في دور ضئيل : ثم ماذا  
يذهب الناس الى السها لمشاهدة أدوار البطولة ؟ لماذا يخص سدا « أولمبيا » و « اوليال »  
بمشاق البطولة ... انهم انما يكلمون على الشاة ما يتقصم في انفسهم . كل يكلم في خياله ما  
ينقسه في حقيقته ...

﴿ مركب الخوف ﴾ هذا هو مركب التقص في أبسط صورته . فإذا زاد عن ذلك أدى  
الى الترك الثاني ، وهو مركب القلق ، أو مركب الخوف فان الناقص الشخصية اذ يحاول تكلمها  
يصطدم بموائل متعددة ، يصطدم اولاً بالتفاوت بين ما به ومجوده ، ويصطدم بما يذكره دائماً  
بنقصه ، ويصطدم بما هو من أول خصائص تلك العلة ، وهو استدامة التفكير في النفس ، ومحاولة اشباع  
رغباتها ، والاعتزال معها او في كنفها ، الى حد الشاعد عن الناس والشك فيهم والحقد عليهم  
كل هذا النضال العنيف ، التوجه الى هدف من التفوق الماد السريع ، الى النجاح بأي  
ثمن ، الى المهمل اذا شاء الامر ، الى كل وسيلة توسع الغاية ، يحدث في نفس القائم به ما نسميه  
« عصي القلق » وأهم أعراضه الشعور بان الانسان على حرف هاوية ، أو على رأس بركان ...  
ولا ثقة بالغد ، ولا اطمئنان للناس ، ولا امان من القدر

اذن لما يصنع هذا الخائف المضطرب ؟ إما ان يعمل ليل نهار دائماً في إزالة هذا الخوف ،  
وفي طلب الامان ، بالدفاع عن نفسه كما يفعل الجيش المحاصر  
وإما أن يجادل نفسه ، ويدعي انه شجاع ، وأنه لا يخاف شيئاً ولا أحداً ، فيتحول خوفاً  
من سبب بعيد الى أمر يتعلق بنفسك السبب البعيد . مثال ذلك : ان أحد الاطباء كان يخاف من  
منظر باقات الزهر ويهرب منها ، والمر في ذلك ان هذا الطبيب كان في أول أمره منكود  
الظالم اذ كان الحظ لا يساعده في شفاء مرضاه فكان يقضي الليالي وهو يسأل نفسه ويلومها ،  
ويقول من يدري ربما لو كان الطبيب الفلاني الشير هو الذي يعالج المصاب لشيء ، ولكنه  
عندما تقدم في العمر والمقام الاجتماعي ، قلب على هذا القلق ، إلا أنه في الواقع خاب في عقله  
الباطن ، فتحول ذلك الخوف الى باقات الزهر لانها توضع على قبور الموتى ...

وفي الوسع رد كل شيء من هاته المخاوف العجيبة الى حادثة معينة في مبتدا العمر ...  
أضف الى تلك المخاوف الخوف من الظلام ، ومن بعض الحشرات الصغيرة ، ومن الخوف  
الخاوية . ومن أعجب ما يتداعى بهاته المخاوف ، ان تظل في المره فكرة حائرة تطرق باب الوعي

لتخرج منه ، وترج نفسها زججا في غير موضعها ومن غير مناسبة ، وتسمى هاته الحالة بالفكرة الثابتة ، وقد لا تكون فكرة بل عملاً خاصاً ، فن الناس من يفتاح الضحك في المآتم ومن الناس من ينادر ديوانه ليعود الى منزله ليستوثق من انه أغلق باب البيت

هاته الفكرة الثابتة تبدأ أول أعراض الجنون ، فن الجنون مثلاً يضحك في أوقات الحزن . والناس يقولون طبعاً « شرفوا الجنون ده » . . . ولكن هناك فرقاً ولحدأ يجب ادراكه ، وهو ان صاحب الفكرة الثابتة يجهد الدافع آتياً من الداخل ، من أعماق نفسه ، وثانياً لا يلبث ان يقوم بالصلة حتى يندم ويقول « لماذا فعلت هذا » . . . أما الجنون فالذائع يأتيه من الخارج . والثاني ان الجنون لا يحس بالندم ، وقد انقطع ما بين وبين العالم الخارجي . فأصبح لا يبالي ما يقوله الناس . والكلام عن الفكرة الثابتة يذكرني بقصة قرأتها لدوهاميل : كان سلاقان كاتباً في شركة وكات عنده فكرة ثابتة عجيبة وهي ان يمس بأنامله كل شيء أحمر ، وكان رئيسه ذا أنف أحمر متورم من البرد فظل أياماً طويلاً يريد ان يمس ذلك الأنف الأحمر ويرد نفسه ، وأخيراً اتكلى على الله ووضع يده على الأنف الأحمر الكبير . فارتاع الرئيس وظن سالاقان مجنوناً ، وأخرج مسدسه من جيبه ، واستدعى رئيس الحسابات قائلاً اعط هذا الرجل حساباً عندنا !

ولعدة الدافع لهاته الفكرة يسمى هذا بمرض « الدوافع العصبية الاضطرابية » خلاصة ما قلته ان غريزة المحافظة على الذات ، تؤدي الى اثبات الذات ، تؤدي الى مركب التمس ، تؤدي الى مركب التلق والظوف ، وقد تؤدي الى مركب الفكرة الثابتة . . .

« العلاج » أحسب الثروة يتساءلون هل يحدث هذا لكل شخص وما سلاجه ؟ وهل يمكن ان تنقب ؟ نعم يمكن ان تنقبه اذا عرفنا ما يحدث في الظلمة على وجه صحيح قلت في بدء المحاضرة ان القتل يولد بارادتين ارادة القوة ، ولولادة المجتمع . ولولادة القوة جلة مرادفة لاثبات الذات . فاذا نصح تهفه الصفة ؟ انقلتها ، أمحورها ؟ إن الاطفال الذين نوكل اليها تربيتهم ثلاثة أنواع . الاول طفل مدلل . والثاني مدلل ثم أهمل . والثالث طفل متروك . فالاول هو أسوأ أنواع الاطفال ، وهو عندما يشب يطلب من المجتمع ما تقيه من ذويه أي ان يدله ويحجب كل ما يطلب ، وثانياً هو شخص تعود ان يشكل على آية وأمه ، فهما يكبر فانه يظل « طفلاً كبيراً » قليل الثقة بنفسه مطلق الاعتماد على غيره . وهؤلاء « الاطفال الكبار » ملء المجتمع المصري ، يكون الرجل ضحماً طويلاً عريضاً مفتول الشاربين ، ولا يحسن التصرف في أبسط الأشياء فاذا وقع في أقل العنات بحث عن غيره ليحلها له . . . أعرف من هذا الطراز رجلاً طويلاً عريضاً ضحماً اذا مرض سأل بواب

البيت « أروح لمن ». وإذا جازني سجنته الي زوجة وهي نحية ، وهي التي تتكلم وتتنام وتدفع « اقلوس » . . . وأعرف من هؤلاء « الاطفال الكبار » من بلغ أرقى المناسب ولكن له نزوات مثل وبدوات رضيع

كنت ذات يوم مسافراً في القطار وكان معي رجل ضخم الجسم ، ومعه عصا غليظة عجيبة وكان يتحدث الي شخص ما كمر يتعد ان يشيره ، فرأيت هذا الصفاق يفعل كالطفل ، وبدأ كالطفل ، وبثرت كالطفل ، وشرع الارض بالمعا ، لعلها تنوب عنه في التذكير بالرجولة

وهؤلاء الاطفال المذللون ، عندما يعدم المجتمع فلا يجدون معيماً ينقلون أفعالهم من الطوائف التي التي يملأ بها شوارعنا ، أولئك الذين يعتقدون ان على المجتمع ان ينفق عليهم ويتكلف بهم ولذلك حين يطلب الواحد منهم شيئاً منك يعتقد أنك مكلف أن تنفق عليه . . . . وإذا رفضت أن تعينه غضب ولمن وسب كأن له عليك حقاً . .

أما الطفل الذي من النوع الثاني فهو طفل كان مدلاً فأهل . فهذا تخنيء في نفسه فكرة نائرة حائقة تلازمه طول حياته . الطغنة الاولى التي لا تسمى مطلقاً . وهؤلاء هم الذين يتورون في قرارة نفوسهم على اي مكان في المجتمع غير المكان الاول البارز . ويهربون من كل حفل لا يتألقون فيه ، ومن كل موضع لا يكون لهم الصدارة فيه . ويتوارون من كل رجل مشرق لامع يحمل اشراقاً شاحبة بجماله . وهؤلاء كذلك كوظفين دائماً يكرهون رؤسائهم ويحقدون عليهم « ويروضون لهم المقالب » . وتتطلعون ابدأ الي كراسي الرئاسة وفي سبيلها يملكون المستحيل . أما الطفل المتروك ، فمنذ ان الاول قد يتعود ان يعتمد على نفسه ، ويكون ناقماً له هذا التترك ، او يترك ويساء اليه مما ، فينشأ الطفل الذي يندو فيما بعد مجرماً وسفاكاً وعدواً للمجتمع ماذا نصنع إذن ؟ الغرض من التربية الصحيحة الاول ان لا تكسر غريزة اثبات الذات ، بل نلججها ونكبحها كبحاً معقولاً ونحسن توجيهها . والثاني ان لا نلججها في التبدليل ، بل نلججها طبعاً شيئاً من الصبر على المحنة والمكارة ، حتى لا يفاجأ بعسر الحياة فيما بعد مفاجأة تصدمه . والثالث ان نعدل بين اطفالنا ، لكي لا يطعنوا في كبرياتهم الغضب . والرابع وهو الامم . وعليه مدار الرقي والسلام والوادة . . . عليه كل شيء ، ان نرفع فيه غريزة « ارادة المجتمع » ونهذبها ونطلق لها العنان . . . .

ان بت هذه الغريزة على وجهها الصحيح يقضي على ما يسمى مركب النقص ويحور توالعه ان المريض بمركب النقص شخص منطوق على ذاته مريض بنفسه واهوائها وهو لا يسمى الى غرض لذاته بل ليشرق على هذا الشخص او ذاك ، هو في الهيئة الاجتماعية جواد سباق . وقد يدوس الجواد الذي يتألم ولا يبالي او يعنه او يأكله . . . ما دام الهدف امام عينيه

ولكن إرادة المجتمع على وجهها الصحيح معناها ان يخرج العقل من دائرة نفسه ليبدأ  
يده الى اخراته في المجتمع على قدم المساواة ، هو واحد منهم ، واذا تأفهم على أمر فاعما  
ينافهم لا لاشخاصهم وذواتهم ، ولكن من أجل فرض سام رفيع يسمى اليقظة ويدأب في  
سبيله ليل نهار. والواقع اننا يجب ان نتجنب طفلاً سليماً لكي نتجنب رجلاً سليماً. والطفل السليم  
الروح والاعصاب هو الذي أحسن والده عنده تربيته التريزين غريزة القوة وغريزة المجتمع  
والآن نفرض ان مركب النفس كان على أشده طرفاً وعنفاً فالأم يؤدي ٢٢

نعود الى فرويد . كل حديثنا الماضي كان عن ناحية واحدة من نظريته وهي غريزة  
الحفاظة على الفرد ... والواقع ان فرويد بنى كل مذهبه على ان الحب هو كل شيء ، حب الأم  
وحب الاب وحب المجتمع وحب الرفاق ، وأخيراً الحب المنتهي بالزواج . وظل يقول طول  
حياته ان هذا الحب وجموحه هما السبب في جميع الأمراض النفسية الشائعة ، ولكننا في آخر  
أيامه عدل عن هذا الرأي في الحب ، وأخبرنا ان الحب تلازمه غرائز كره وتحدٍ وهدم ،  
وأن المدنية ما هي الا كبح جماح هذه الغرائز البغيضة الشاذة . . . . . ونحبرنا انه عندما  
يكون النضال النفسي عنيفاً تتمزق للنفس شقايها ، وتسيطر هذه الغرائز العنيفة ويكون لها  
المقام الاول . وهذا ما يحدث في الجنون ، فمن الجنون قد ارتد عقله الى عالم داخلي متقطع  
عن الخارجي ، بل ارتد الى مناطق الطغولة الأولى ، وكما قلنا التكامل بينه وبين العالم  
إلخارجي ، كذلك قلنا التكامل بين أجزاء المخ ، ولذلك تستيقظ فيه غرائز الهدم والتجدي  
مهما يكن نوع النضال ومنتزعه من الحب او البغض فهو نضال منوع ، إنه أولاً بين العقل  
الباطن والعقل الواعي ، وثانياً بين العقل الواعي والرقيب ، وثالثاً بين جميع هذه العوامل  
مجتمعة والعالم الخارجي . ورابعاً هو غالباً نضال خفي بين رغبات مطوية وبين عالم لا يقرها  
ولا يبوحها . وقد يكون النضال في سبيل رغبة اجتماعية أو في سبيل رغبة جنسية . ولكنه في  
كلتا الحالتين منتهك للقوى فوق ما يقتضيه من مجهود جسدي ، والتعب الناشئ عنه لا يتقضي  
مع الراحة ، واذا انتهى فكثيراً ما يعاود

وهذا المجهود العصبي المؤدي الى لحظات الاعصاب هو ما يسميه الاطباء بالنوراستانيا .  
والمرضى بالنوراستانيا شخص أعصابه مبهمة منهكة ، وهو تعب حقيقي ، وليس وهماً ولا  
خيالاً . قد يكون منتزعه وهماً او خيالاً ، ولكن المرض ليس وهماً ولا خيالاً ، وهو مرض يحدث  
للانفصاء المتضمنين بسعة الوعي ، فان الكبت الباطني يجمد منذاً عن طريق الروح . أما  
الذين يصفون بضييق الوعي ، كالتوسطي الذكاء ، فان الكبت يجمد منذاً عن طريق الجسد  
فتحدث التشنجات والتقلصات وما الى ذلك وهذا مما يسمى بالهستيريا